الحجّ مدرسة تزكية

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ١٣/١١/٢٠٠٩م

نقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى قوله جلّ مِن قائل:

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧]

فقرّر القرآن الكريم في هذا النصّ أن الحجّ مدرسةُ تطهيرٍ وتزكية، وروضةُ تدريب للمسلم على نقاء أركانه، وصِدق لسانه، وسلامة جَنانه، لأنه تبارك وتعالى حينما ذكر أمورًا ثلاثة هي: الرفث والفسوق والجدال، فإنه سبحانه نبّهنا إلى تطهير اللسان والأركان والجَنان:

فالرفث: الإفحاش في القول.

والفسوق: تلبُّس البدن بمخالفة أمر الله تبارك وتعالى، وكثرة تلطّخه بالمعاصي.

أما الجدال: فهو غير الحوار، لأن الحوار كلمات مُتبادَلة يُقصد من خلالها الوصولُ إلى العِلم، وأما الجدال فإنه يكون ممزوجًا بالغضب، والغضب حينما يملأ القلب يُعميه عن رؤية الحقيقة.

وهكذا كان تعبير القرآن مُعجزًا حين قال للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم:

{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] وذلك من أجل أن ينفي وَصف الغضب عن ذلك الجدال، ويُبقي في نفس الوقت غضبًا من نوع واحد وهو الغضب لله تبارك وتعالى.

فكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب لنفسه، لكنه كان يغضب إذا انتُهكت حرمات الله، فأبقى في هذا التعبير جزءَ غضب، فما قال: (حاورهم)، إنما قال: **"جَادِلْهُمْ"**.

لكنه سبحانه وتعالى حينما نبّهنا إلى موقف العبد في الحجّ، وإلى الحال التي ينبغي أن يكون عليها وهو في حضرة ربّه: وهو يطوف ببيته العتيق، وهو يطلب المُنى في مِنى، وهو يطلب المعرفة في عرفات، وهو يطلب القُرب في مزدلفة... وجَّهه إلى ترك الاشتغال بالخَلق، وتركُ اشتغال القلب بالمخلوقين من لوازمه أن ينتفي الجدال بكل أوصافه، وأن ينتفي هذا التبادل الكلامي الذي ينبعث عن حالة الغضب.

وكيف يغضب من كان في حالة العبودية مُستغرقًا في عظمة الربوبية؟!

إنه موقف يمحو فيه ظهور العبد بمظاهر علوٍّ أو حِدة أو شِدة، لأن العبد حالة تواضع وخضوع، فالعبد وصفُه التواضع والذلّ والانكسار...

وهكذا طهّر الله سبحانه وتعالى هذا العبد حين أمره بنفي الرفثِ والفسوقِ والجدالِ.

واقرؤوا النصّ ثانية:

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ} وهذه الأشهر التي نحن اليوم في رحابها هي: شوال، وذو القعدة، وذو الحِجّة.

وعندما يجعل الله سبحانه وتعالى رُبع العام أشهر الحجّ، ثم يقول سبحانه: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} أي مَن نوى الشروع فيهن بالحجّ، {فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}، فإنه سبحانه يُهيِّئ عباده قبل الحجّ للحجّ، فيدخل المؤمن في رُبع عامه مدرسةَ تطهير وتزكية، فإذا تحرّك ببدنه مُتجهًا إلى بيت الله العتيق مُلبّيًا ومجيبًا لدعوة الله سبحانه وتعالى التي أمر إبراهيم بإعلانها بقوله: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} [الحج: ٢٧] وهو يقول: (**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك**)، فإنه يكون في حالة من النقاء والطهارة.

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} أي: من نوى الشروع بالحجّ في هذه الأشهر، {فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} وهكذا يكون مُستصحِبًا للحال الذي أصبح فيه مُستعِدًّا.

فهل يستعدّ الذين يريدون الحجّ قبل الحجّ من أجل أن يدخلوا في مدرسة التزكية هذه، أم أن الأبدان فقط هي التي تحجّ؟

والحجّ في معناه: الإرادةُ والقصد والنيّة، فهل تحجّ هذه القلوب والأرواح؟

وهل تتوجّه بقصدها ونيّتها وإرادها إلى الله، أم أن الأبدان فقط هي التي تتحرك أما القلوب فإنها مشغولة بالمخلوقين لا تذوق من معاني الحجّ شيئًا؟

وهكذا يتهيأ الإنسان قبل الحجّ للحجّ من أجل تصحيح إرادته، ومن أجل توجيه قلبه إلى الله.

وتوجيهُ الإرادة وتصحيح النيّة مطلبٌ إسلاميّ ينبغي أن يتنبّه إليه المسلمون في العام كله، لأن الأعمال كلها لا قيمة لها إلا عندما ترتبط بالإخلاص، قال صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات**).

فلا قيمة للعمل إلا عندما ينطلق من حالة الإخلاص، قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]

فالإخلاصُ والقصدُ والنيّةُ الخالصة المتوجّهة إلى الله مطلبٌ إسلاميّ، وما أشهرُ الحجّ إلا مُذكّرة للإنسان في كل عام، فكما ذكّرنا الله سبحانه بشهر رمضان حينما أراده سببًا للتقوى بقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] فدرّب الإنسان في شهرٍ على التقوى حينما يترك المخالفات، وحينما يكون في حالة من النقاء الروحيّ لا يحتاج إلى شيء من الأشياء، فكذلك جعل الله سبحانه أشهر الحجّ هذه مُذكّرة للإنسان بالقصد، ومُذكّرة له بالنيّة وبصدق الإرادة التي لا تتوجّه إلا إلى الله.

فليس الحجّ لمن تحرّك إلى بيت الله العتيق، إنما الحجّ رمزيةٌ حاضرةٌ في قلوب المسلمين، سواء من سار ببدنه ومن لم يَسِر.

إنها أشهر من أجل أن يشترك المسلمون فيها في تصحيح النيّة، وفي توجيه الإرادة.

واقرؤوا قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ..} وما قال: هدىً للحُجاج، من أجل أن تكون رمزية البيت مُنتشِرة إلى العالَم كله، حتى يتعلّم العالَم كله كيف تكون العبودية لله الواحد، وكيف يكون الطواف والتوجّه للعالَم كله إلى مكان واحد بالأبدان، أما الأرواح فإنها تتوجّه إلى الذي لا يحويه مكان ولا زمان، فالأبدان تتوجّه إلى المكان الواحد، والأرواح تتوجّه إلى الربّ الواحد.

فما كان بيت مكّة هدىً للحُجاج وحدهم، إنما قرّر القرآن أنه هداية للعالمين.

{..فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٩٦-٩٧] وإبراهيم هو نموذجٌ مقبول عند جميع الناس، يُعظمه اليهود، ويُعظمه النصارى، ويُعظمه المسلمون...

وهكذا جعله الله سبحانه وتعالى للناس إمامًا: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة: ١٢٤].

والإمامة للناس لم تكن إمامة رياسة، ولا إمامة زعامة، ولا إمامة ديكتاتورية، ولا إمامة استبدادية... إنما كانت إمامة نوع وإمامة وَصْف، فحينما يتميّز الإنسان بوصفه يصير إمامًا من غير أن يطلب الإمامة، ومن غير أن يُقدِّم نفسه على أنه إمام.

فالنوع والوصف هو الذي يُفرز الإمامة، وهو الذي يجعل الإنسان مُتميزًا بنوعه ووصفه.

وهذا نموذجٌ لكل الناس.

وهكذا مَن توجّه بنظره إلى ذلك البيت تذكَّرَ أن هذا البيت مقام إبراهيم.

وعندما يكون البيت هدايةً للعالمين وهو مقامُ إبراهيم، يكون عند ذلك النموذج الإبراهيميّ هاديًا لكل للناس، وثابتًا عند أمر الله، ومُستسلِمًا لأمر الله، وعبدًا خالصًا لله...

فإلى متى يعيش العالَم اليوم في عبادة الشهوات؟

إلى متى يعيش العالَم اليوم في عبادة المادة؟

إلى متى يعيش العالَم اليوم في نسيانٍ لصانع العالَم ومليكِه وربّه؟

إلى متى نعيش هذه البهيمية المقيتة؟

إلى متى نعيش هذه الوحشية التي نراها اليوم في كل يوم؟!...

وما هذا إلا لأننا نُهمل توجيه القلوب إلى هذا النموذج الإبراهيميّ الذي استسلم لله سبحانه وتعالى، وكان موحِّدًا في ظاهره بالطاعة، وفي باطنه بالاعتقاد والثقة واليقين والتصديق.

أين دعوتنا إلى الله؟ أين اجتهادنا من أجل أن يكثر النوع الإبراهيميّ؟

نتوجّه بأبداننا إلى بيت مكة، لكن هل نوجّه الأرواح إلى ربّ إبراهيم الذي توجّه إليه إبراهيم؟

وقال سبحانه: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ} [المائدة: ٩٧] أي صلاحًا للناس كلهم، يقومون بوجوده، فإذا انعدم هذا البيت انعدم العالَم، فسِرُّ وجود العالَم وجودُ البيت، ومركزُ قوة العالَم الروحانية هو هذا البيت، وعندما يزول وجوده أو اعتباره أو سرّه يضمحل العالَم.

فبوجود سِرّ البيت في العالَم يقوى العالَم بالله، وتقوى حضارتُه، وتقوى مدنيتُه، وتقوى حالةُ ارتقائه الروحيّ... وبضعف اعتباره في العالَم وبزوال أسراره وأنواره وبيّناته ونموذجه الإبراهيميّ لا يبقى للعالَم قيمة.

واقرؤوا قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا} [البقرة: ١٢٥] فالناس يذهبون إليه ويعودون لتجديد صِلة العالَم من كل فجّ عميق.

فالحاجّ حينما يأتي إلى البلدة يُذكِّر البلدة كلها بالعهد مع البيت، وحينما ينطلق الحُجّاج من العالَم كله ثم يعودون من البيت إلى العالَم كله يُذكِّرون العالَم بهذا العهد.

لكنه بعد أن قال: {مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، قال: {وَأَمْنًا} فإذا وجد اعتبار البيت، وظهرت بيّنات البيت في العالَم، ظهر الأمن في العالَم، وحينما يزول اعتبار البيت ويزول النموذج الإبراهيميّ أو يقلّ في العالَم، يضطرب العالَم ويضطرب الناس.

فأمنُ الناس مرتبط بسِرّ البيت.

وعندما تكون العبودية لله عالمية يحصل في العالَم الأمن، وعندما تنتفي العبودية لله في العالَم يزول الأمن، وهذا ما نعيشه اليوم.

فنحن نعيش اليوم حالة الاضطراب، ونعيش حالة الظلم، ونعيش حالة أكل الناس بعضهم لبعض، وحالة التهامهم لبعضهم، ونعيش حالة استكبار القوي على الضعيف، وحالة سرقة القوي للضعيف، ونعيش الفوضى التي ما كانت تحصل لو أن سرّ البيت كان حاضرًا في الناس، ولو أن البيّنات التي في البيت كانت حاضرة في الحاكمين والمحكومين، وفي الأغنياء والفقراء، وفي الأمراء والأُجَراء...

وعندما حضر سِرّ البيت في عمر رضي الله تعالى عنه تواضَعَ لله.

وعندما حضر سِرّ البيت في سليمان الملك عليه الصلاة والسلام صار عبدًا لله.

وعندما زالت العبودية لله من القلوب عشنا وعاش العالَم حالة الليل.

ووقف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحجّ، كما يروي الإمام البخاري في صحيحه، فقال يوم النحر: (أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا).

وهكذا أفرز الحجّ الأمن الحسيّ والمعنويّ:

- دماؤكم عليكم حرام: فإياكم أن تقعوا في الدماء الحرام.

- وأموالكم عليكم حرام: فلا يأكلْ بعضكم أموال بعض، وعليكم بالأمانة والاستقامةِ في المعاملات المالية، وابتعدوا عن الغش الماديّ، وابتعدوا عن سرقة الأموال والثروات...

- وأعراضكم عليكم حرام: فلا يقعَنَّ بعضُكم في عِرض البعض الآخر، وأوقفوا الغيبة، وأوقفوا السخرية والتهكُّم، وأوقفوا النميمة لأنها وقوع في الأعراض...

وهكذا أفرز الحجّ حالة الأمن حِسًّا ومعنًى، وأفرز في السلوك الإنساني طهارة.

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ} ونحن في أشهر الحجّ، فهل سنعي واجبَنا المعنويّ والماديّ في هذه الأشهر؟

رُدّنا اللهم إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.